



من المفارقة وضع انسحاب أحد الأطراف المحتلة لسوريا في خانة المصائب التي تنتظر هذا البلد المنكوب، ذلك أن الوجود الأميركي في سوريا، وعلى الرغم من كل مساوئه، يظل العامل الوحيد لتحقيق توازن، مهما كان هشاً، في مواجهة التغولات الروسية والإيرانية، في غياب الأمم المتحدة، أو أي طرف دولي فاعل. ومن المفارقة أيضاً تزامن الإعلان عن قرار الانسحاب الأميركي مع وعيid الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، بشن حربٍ لا هوادة فيها على الفصائل في سوريا، وتفاخره بتدمير الكتلة الأساسية من المسلحين، وكذلك محاولة روسيا تلقيق تركيبة للجنة الدستورية التي على أساسها سيقول الروس للعالم: لقدنفذنا كل الاستحقاقات المطلوبة منا، فنفذوا أنتم التزاماتكم.

يضرر قرار الانسحاب الأميركي كل الرهانات على إمكانية تحقيق أي توازن محتمل لصياغة تسوية للأوضاع السياسية، فسيلغي هذا الانسحاب أي دافع أو محفز للطرف الآخر، من أجل السير في طريق هذه التسوية، وعندما تكمل أميركا انسحابها من مناطق شرق الفرات، فإنها بذلك ستكون قد تحولت إلى طرف هامشي بدون أي فاعلية، سوى المساومة على ورقة إعادة الإعمار، وهو أمر غير مضمون بدوره مع شخص مثل رئيس الإدارة الأميركي، دونالد ترامب، الذي يتبدل ويتغير في كل لحظة.

ليست معلومة الأسباب التي دفعت إدارة ترامب إلى اتخاذ هذا القرار المفاجئ، ولا طبيعة التقديرات التي أوصت به، غير أن متابعة ما يصدر عن الإدارة الأمريكية في المرحلة السابقة كان يوحي بأن إستراتيجية ترامب السورية قد تبلورت واتضحت آلياتها وأهدافها، كما أن وزارة الدفاع زارت، في الشهور الأخيرة، من أصول أميركا العسكرية في مناطق شرق الفرات، وقد رسم ذلك القناعة لدى المهتمين بأن هذه الإستراتيجية ستستقر سنوات طويلة، وستكون أحد عناوين الأوضاع في الشرق

الأوسط، وأنها ستضغط على روسيا، من أجل التوصل إلى تسوية سياسية حقيقة.

هل فاضلت إدارة ترامب علاقاتها بتركيا عن وجودها في شرق سوريا؟ ربما، وخصوصاً بعد الإعلان عن صفقة صواريخ باتريوت بين الطرفين. وهل وعدت تركيا في مقابل ذلك بتخفيف علاقاتها مع روسيا؟ لا يمكن القفز إلى جواب في هذا الإطار بسبب تشابك العلاقات بين تركيا وروسيا وتعدها، وخصوصاً في المجالات الاقتصادية، الاستثمارية والتجارية.

لكن المؤكد تخلي تركيا عن أهدافها الأساسية في سوريا، إلى درجة أنها باتت تلعب في سوريا وفق القواعد التي حددتها بوتين، وحصرت أولوياتها في إطار محاربة حزب العمال الكردستاني، ومنع تشكيله قاعدة تجميع وإنطلاق في سوريا، لما ذلك من تأثير، وفق التقديرات التركية، على المصالح الأمنية لأنقرة.

هل يتساوق قرار الانسحاب الأميركي مع مشروع إعادة تأهيل بشار الأسد، الذي يبدو أنه وضع على الطاولة بعد صدور مؤشرات عربية ودولية في هذا الاتجاه، خصوصاً أن الدبلوماسية الأميركيّة أكدت أخيراً، وفي أكثر من مناسبة، أن واشنطن غير معنية بتغيير النظام، وهو ما يمنح اللاعبين الآخرين حرية السير في هذا السياق؟

وهل اقتنعت تركيا، وحسمت المفاضلة بين تأهيل بشار، واستعادته السلطة على كامل الأراضي السورية، والرهان على إسقاطه الذي لم يعد مضموناً بسبب سيطرة روسيا على الأوضاع في سوريا؟ التوافق بين أنقرة وموسكو على صعيد أكثر من ملف يؤيد هذا الافتراض، كما أنَّ كلام رئيس الوزراء التركي، جاويش أوغلو، عن احتمال إعادة العلاقات مع نظام الأسد، في حال حصول انتخابات ديمقراطية، مؤشر على تغييرات جذرية في الموقف التركي. وهذا ما يحيل إلى سؤال آخر: ما هو مصير المناطق التي ستخرج أميركا منها، هل يجري تسليمها لنظام الأسد، أم ستتشكل فيها إدارات مستقلة، أم أنَّ الأتراك سيضمنونها للأراضي التي يسيطرون عليها في غرب الفرات، الرقة وريفها الشمالي والريف الشرقي لدير الزور، وهي المناطق ذات الأكثريَّة العربيَّة؟ والمعلوم أنَّ هذه المنطقة تحتوي معظم إنتاج سوريا من النفط والغاز، فضلاً عن أنها أكبر مصدر للمياه في سوريا.

ولعل السؤال الأهم في هذا السياق يتعلق بالوجود الإيراني ومصيره في هذه المنطقة الحساسة، حيث تعامل إيران مع هذه المنطقة بوصفها منطقة نفوذ مستقبليةٍ مهمة، وقد حولت البوكمال وريفها إلى مركز لانطلاق عملياتها المستقبلية، وخصوصاً على مستوى التشيع وتغيير التركيبة الديمغرافية في الجزيرة السورية، وقد أسست مليشيات عديدة من أبناء المنطقة، وقامت بتشييع أبناء العشائر، وخصوصاً العشائر التي تنتهي لآل البيت، وهي، للمساعدة، كثيرة في هذه المنطقة، وتملك إيران قدرات لوجستية هائلة هناك، مع وجود طرق برية مباشرة بين طهران وشرق سوريا، واستقرار مليشيات الحشد الشعبي العراقي في المناطق المقابلة لجزيرة سوريا.

على ذلك، كل ما فعلته إدارة ترامب، في المرحلة السابقة، هو جعل إيران ترسخ نفسها قوَّة مؤهلة للسيطرة على منطقة شرق الفرات بعد خروج هذه الإدارة، ويبدو أنَّ إيران التي بات لديها خبرة بالنزق الأميركي، وسرعة التملص من الالتزامات، قد جهزت نفسها جيداً لهذا اليوم.

قرار الانسحاب الأميركي سيحول سوريا بالفعل إلى مستنقع للإرهاب تمارسه مليشيات الأسد بمساعدة روسيا وإيران. لا يعرف هذه الحقيقة إلا السوريون الذين استعاد نظام الأسد السلطة عليهم، حيث بلغت استباحة آدميَّتهم والاستهتار بحياتهم حدَّاً لا يمكن لعقل آدمي تصوّره، وهذا بوتين يتوعّد السوريين بالويل والثبور، ويتباهي بقضاءه على المعارضة، وينسى أنه يطرح نفسه أمام العالم وسيطأ وضامناً، ويتشدق وزير خارجيته، سيرغي لافروف، بالمصالحة بين السوريين!.

المصادر:

العربي الجديد